# ميرامار
# قصة ودرس

في البداية وبمجرد أن انتهيت من قراءة آخر سطور القصة أصابتني حيرة لا مثيل لها، الكاتب لم يكن يريد فقط أن يحكي قصه قبل النوم أو أن يلهمنا درسا للمستقبل، إنما أراد أن يدمج كلا منهما معا، لنتعلم كيف نغزل الأدب والفكر في نسيج واحد. القصة أولا أم الدرس؟! لا أعلم .... ولكني سأستخدم أسلوب الكاتب عندما أراد أن يصور أفكاره في قصة، إذن فالقصة قبل الدرس.

زهره الفلاحة المصرية التي هربت من مشاكل الريف وأفكاره ومعتقداته، رافضة سيطرة غيرها علي حياتها، وأعربت عن غضبها وحنقها بالهروب، رغم يقينها بقدرتها علي حل مشكلتها، فقط إذا عزمت علي أخذ موقف رفض أمام من يبغي السيطره عليها، بنفس العزم والقوة التي اتخذت بها قرار الهروب، والذي ليس بهين مطلقا علي فتاة ريفية.

انتقال زهره إلي المدينه كان خطوه تحول واضحة، فبمجرد وصولها للحياة المدنية خلعت عن نفسها زي الفلاحة والأرضي الزراعية، وصبغت بألوان "بنات البندر" التي اعتادت أن تراهم خلال رحلتها مع والدها للمدينة، تلك الرحلات التي خلفت أثرا واضحا ورغبة جامحة في شخصية بطلتنا، وتجلت تلك الآثار في الالتجاء لميرامار كمكان للهرب، إحدى محطات رحلتها مع أبيها.

عندما اتجهت محور قصتنا إلي البنسيون سابق الذكر، لم تكن تعزم فقط علي ترك ماضي يحمل ذكري شخص اراد ان يلغي وجودها وشخصها ، انما ايضا عقدت العزم علي اثبات جدارتها في حياتها الجديده، لتؤكد لنفسها ولمجتمعها الحالي قدرتها علي مواجهة عالمهم الخاص بطريقتها الخاصة، ولتعلن فوزها في معركه إثبات الذات، وتناست أنه في معركتها الخاصة لابد أن تثبت قوتها لعدوها أولا، عدوها المتمثل في رغبة شخص قريب منها في توجيه حياتها بطريقة لا تراها هي الأفضل.

اهتمامات بطلتنا تغير، وتغير معها أسلوبها اليومي، فبعد أن كانت تبدأ حياتها بالزراعة والتعامل مع خيرات الأرض، أصبحت تفتتح يومها بمعاملات تجارية مع مخلوقات الأرض، ونجاحها السريع في التعامل مع تلك الخطوة ما هو إلا إثبات لجدية رغبتها في تكسير قيود تبعيتها لولي أمرها، رغم أنه مازل في اعتقادنا أن تلك القوة الكامنة لو استخدمتها لمواجهة مجتمعها القديم وفرض رأيها الحر عليه، لتغيرت معالم كثير في الطابع الحياتي لها، ولهذا المجتمع صاحب الطبيعة المختلفة الذي مازل يتعمد في قليل من الأحيان تربية المرأة بطريقة تؤهلها لربط عينها وتحريك ساقيها.

زهرة الشخصية العنيدة المعتزة بنظرتها لنفسها تريد أن يراها الناس كما تري هي نفسها "ليست غشيمة" وتستطيع أن تكون "رجلا عند الضرورة" علي حد تعبيرها، ولهذا يجب أن تكون علي مستوي آخر من الإدراك، لا يكتفي فقط إدراكها بأنواع البشر وسلوكهم، إنما لابد أن تدرك أيضا مستهلكات تلك البشر وكيفية الحصول عليها، ولهذا كانت تتعلم الشيء من المرة الأولي وافتخرت بنفسها حين أجادت حفظ أسماء الخمور الأمر الذي لم تكن لتفتخر به منذ أيام قليلة. وذكاؤها الفطري لم يتوقف علي إدارك متطلبات عملها، إنما

اتخذ مظاهر مختلفة:

- منها فهم نوايا البشر والتعامل معها كطلبة بك الذي بعد أن كشف نفسه لها بحركة طفولية ساذجة، لازالت تتعامل معه بطريقة تناسب طبيعة عملها ولا تتخطي حدود الموقف الذي فرض عليها، الموقف الذي يجبرها بسبب مهنتهاعلي التعامل معه، ويمنعها - لقوة حرصها علي نفسها - من الاختلاط به.
- ومنها أيضا احتياجها الطبيعي كإنسانة لشريك حياة يتفهم طبيعتها المختلفة التمردة علي نظرة أو كلمة تجعل منها "حيوانا لطيف بلا عقل ولا دين، والوسيلة الوحيدة التي تجعل منهن حيوانات اليفة هي الحذاء " تلك الجملة التي سمعتها زهرة من أحد أطراف الرواية فرفضته كشريك حياة لأنه علي حد تعبيرها " ستعود معه إلي مثل حياة الريف التي هربت منها".

زهرة تدرك ما تريد من "الحب والتعليم والنظافة والأمل"، وعندما اختارت الحب متمثلا في شخصية سرحان أرادت أن تكون كفئا لهذا الاختيار، فبحثت عن التعليم وثابرت عليه، ورأت في حبها النظافة والأمل.

ضعف زهرة تجلي أول الامر حين هربت من مواجهة مشاكلها مع مجتمعها الريفي، وجدّها صاحب الرأي الحاكم في حياتها، وخضعت لرغبتها في الخروج عن "حياة المشقة" كما قالت.

اللآن للمرة الثانية يسقط القناع عن قوة زهرة أمام حبها لشخص، فقد أدركت بعد فترة بذكائها وخبث أفكاره أنه لا يري فيها إلا يومه ، أما غدا فلن يراه إلا مع شخص آخر، شخص كالمعلمة التي أحضرتها لتكون السبب في كشف أحد خفايا شخصية سرحان.

مات سرحان أو لم يمت، انتحر أو قتل، لم يختلف الأمر كثيرا إلا مع شخص كزهرة، ولأن الذكي هو من يستغل إدركه لنقطة ضعفه ليحولها لمصدر قوته، قررت زهرة أن تبحث عن معلمة أخرى وحياة أخري خارج ميرامار المكان الذي خرجت منه كما دخلت له، باحثة عن قوتها. تلك هي النظرة القريبة التي رآها كل قارئ عندما أخذ يفكر في زهرة، لكن بمجرد أن نمعن النظر في تلك الشخصية نجد بعدا آخر، نجد مصر متمثلة في فتاة. أراد الكاتب أن يؤرخ حدثا ويسجل موقفا عن طريق الفن والأدب، فرسم لشخصيتنا المذكورة سابقا بعدا آخر، رسما خياليا يحاكي الحقيقة في شكل كناية عن الواقع، استخدم الأشخاص كرموز، واستبدل الأزمات بمواقف، ليمنحنا رأيه في مصر عقب ثورة يوليو. استنتج كاتبنا المستقبل ودَوَّنه، وترك كتابه شاهدا علي كشفه لخبايا مستقبل قد لا يحيا ليراه .

مصر الفتاة التي خلعت عن نفسها بعد الثورة زي الفلاحة، وهجرت الأرض الزراعية لأسباب عدة، قوية كانت أو ضعيفة، لا يهم فالأهم هو فعل الهجرة الذي لم يكن يعني إلا أنها استسلمت لكل المشاكل التي احاطت بالزراعة في تلك الفترة، رغم أن تاريخها يحمل الكثير والكثير من الموقف الأكثر شدة من هذا تلك الموقف، أشار الكاتب لتاريخ الفتاة مصر مع الأزمات وقدرتها علي المواجهة، من خلال رفضها السكوت عن زوج أختها الذي اراد سرقه خيرات أرضها.

مصر الفتاة الريفية التي يغلبها الطموح، تبحث عن التنوع في حياتها، فالزاعة التي اعتادتها منذ زمن طويل لم تعد كل مبغاها، فذهبت إلي سوق العمل الجديد متمثلا في ميرامار الإسكندرية. سوق العمل الذي احتد كثيرا عقب ثورة يوليو، وبعد أن غدا العالم يكسو نفسه برداء الثورة الصناعية التي سقطت أشعتها من أوروبا علي أغلب دول العالم إن لم تكن كلها. ارتدت الفتاة مصر زي العاملة، لم يكن ينقصها ما يؤهلها

لتكون عاملة متميزة، فهي -وفي فترة وجيزة- اقتحمت التجارة من حيث أبواب لم يخيل لها قط أنها قد تدخلها.
مصر الفتاة الريفية التي أصبحت بعد الثورة مصر العاملة لم يكن بعسير عليها أن تجتهد وتثبت لعالم ما وراء البحار أنها قادرة علي مسايرة الحياة الجديدة، كل فترة تمر عليها تجعلها عازمة علي أن تؤكد هذا الأمر أكثر فأكثر، حتي يبدأ التراجع، حين عزمت زهرة الرمز علي التغير في الشكل أولا، ثم بعدها بفترة ليست بالقصيرة أو الطويلة تغير المضمون. تماما كمصر حين شيدت مصانع متنوعة وعملاقة وصناعات تتحدي بها العالم من سيارات وحديد وصناعات ثقيلة، قبل أن تبني العامل نواة المصنع الآدمية، اليد العاملة. زودت المصانع بأكبر الآلات التي كانت الكثير منها قد استعارتها من اليد الأجنبية أصحاب سوق العمل تماما كفستان زهرة الجديد. وضعت للمصنع أغلي الآلات، وأحاطت العامل بكثير من المشكلات.
وما أن أدركت فتاة مصر العاملة ضرورة التعامل مع المشكلات الحديثة بالتغير الداخلي كما هو الشكل الخارجي، كانت قد تأخرت، فاذا كان لابد للعاملة قبل أن تشتري الفستان أن تشتري الكتاب، فإن فعلت لما كانت بحاجة إلى أن ترتقي لتوازي طبقة سطحية ظهرت بعد ثورة يوليو، ولما اقتنع قلبها بالفكر الأجوف لتلك الطبقة، ولكانت أدركت من بداية الأمر ما تحمله تلك الطبقة في جعبتها من خدع تساوي في مستواها خدع ساحر السيرك.
وحين جاءت فرصة الرجوع إلى الأرض لفتاة مصر مرة أخرى، رفضت ظنا منها أن يومها الجديد يحمل الحياة الكريمة، فبغضتها أسرتها الزراعية، فتناستها خيرات أرضها. مصر في زي العاملة أصبحت مستهلكة، بعد أن كانت الفلاحة المصرية المنتجة، أصبح دخل عملها البسيط لا يتناسب مع متطلباتها من المظهر والتعليم، وإن كانت اهتمت بالثانية ثم الأولي لنجحت. تركت الفتاة ميرامار سوق العمل، بعد أن اصطدمت بواقع اختيارها، وهاهي تهيم بعزم لا ينكر في دروب الحياة لتجد لنفسها مكانا تحت الشمس، باحثة عن معلمة وميرامار جديد، رغم أنه بإمكانها أن تستخدم روحها المثابرة للبحث عن معلمة فقط، وتعود لأرضها الزراعية فتوفر الكثير من عناء البحث في ميادين جديدة وعن ميرامار جديد.
مات سرحان ممثلا طبقته، قتلها الإعلام أم انتحرت تلك الطبقة وظن الإعلام أنه قتلها بضربته؟! هذا السؤال المعروف إجابته مازال يحير الإعلامي منصور، ولكن كل ما يهم أن حياة الفتاة المصرية ذات الخبرة الزراعية والصناعية لم تعد تفتقد تلك الطبقة.

**عزيزتي زهرة:**

عزيزتي الريفية العاملة والكناية عن شيء أكبر وأهم من مجرد فتاة. لعلي أريد أن أصدمك بالحقيقة التي تعلمينها عن نفسك، فأنت كما تقول الأمثال الشعبية: "سبع صنايع والبخت ضايع"، فقد أهملت الأساس وتركت الأرض، فإذا كنت واجهت مشكلتك الحقيقية منذ بدء الأمر لكنت الآن من أكبر منتجي محافظتك "الزيادية بحيرة".
ولو استرجعت معاملات أبيك التجارية لبيع ما كانت تنتجه أرضه وأرضك، لكنت الآن صاحبة سوقك الخاص وتمتلكين ميرامار خاصا بك، والذي يناسب حياتك أنت، بمعتقداتك أنت دون أن يفرض أحد علي اختيارك قيدا، وما صارت المدنية الحديثة تجبرك علي أخذ أجر من ماريانا الأجنبية التي لا تتورع عن استغلالك إن أتتها الفرصة.

عزيزتي زهرة الوقت لم ينته بعد، واليوم هو بداية لأفضل مواسم الزراعة، عودي لأرضك وواجهي مشاكلك التي تراكمت عليك بفعل هروبك، عودي لتكوني منتجة، وخبرتك في سوق العمل ستساندك، ولتكوني صاحبة القرار في حياتك. عودي فالآن جدك قد أصبح شبحا غير موجود إلا في مخاوفك فقط. لا تستمعي لكلام طلبة بك أو حسني، فالأول هاجر هربا، والثاني سيموت فقرا إلا أن عدت إلي أرضك وانقذت الجميع ، وأولهم منصور الإعلامي العاجز عن التصريح برأيه عن حياته وعنك، وعامر وجدي الذي كان ومازل يمنحك القوة لتواجهي، وهو في أشد الحاجة إليها.

عزيزتي، اسمعي صوت قلبك النابض بروح
شاب يريد عزتك، عودي للأرض



لتروي عطشها وجوع أهلها، القطن الذي خلعته عن ردائك يوم أن تركت الزراعة واستبدلته بالبوليستر، الآن هو سبيلك للصدارة، والقمح الذي تشترينه بأجرك اليوم بإمكانك أن تزرعيه غدا، وتكوني سيدة قرارك، فلا النيل سيجف أو يتوقف إلا اذا استمر إنكارك لهبة الله لك.